القرآن.. وحراسة البناء

«٢»

ما سبق في كلمات قريبات له رافد لا بد منه؛ خصوصاً حين نكون حريصين على أن نهتدي بهدي الكتاب الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام من أجل واقع الأمة، وتحويل مشاعرنا نحو الإسلام إلى عمل ينطق بسلطانِ الإسلام والاحتكام إليه على كل صعيد.

ذلك الرافد: هو أن ما ألمحت إليه من حراسة المجتمع من الداخل: قائم على أن كل ما عرفه الشرع والعقل وكان موضع الاستحسان: فهو معروف، وكل ما أنكره الشرع والعقل: فهو منكر، ولا تخالف بين حكم الشرع وبين العقل السليم، وإذا حصل التخالف ففتش عن سلامة العقل أو عن وجود العلم.

هذه واحدة: وأما الثانية: فهي إيضاح لما أشرت إليه من أن أبعاد كل من المعروف والمنكر لا تحجز عن ميدان من الميادين، أي أن عملية البناء الفريدة في تاريخ البشرية، التي كانت ــ كما تدل النصوص والوقائع من عطاء الرسالة المحمدية ــ لم تفرق بين ساحة وساحة، أو بين ميدان، وميدان، في تناسق فريد بين الغاية والمنهج؛ ذلك بأن شمول الإسلام لكل شؤون الحياة على النهج الذي يسعد الإنسان في دنياه وآخرته، تجعل المعروف معروفاً ضمن هذا الشمول حين يتسع ويتسع، فيجعل إماطة الأذى عن الطريق واحدة من شعب الإيمان، تلك الشعب التي بلغ من وفرتها في بيان النبي عليه الصلاة والسلام أن تكون بضعاً وستين أو بضعاً وسبعين شعبة، كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها كلمة لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». كما تجعل المنكر منكراً ضمن هذا الشمول أيضاً حين يتسع ويتسع، فيجعل الجناية

على حيوان ضعيف كالهرة سبباً في دخول النار، ذلكم ما أخبر به النبي ﷺ كما ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم ـ من أن امرأة ممن كان قبلنا دخلت النار بهرة حبستها لا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض ولا هي أطعمتها.

وإذا كان بنو إسرائيل قد لُعنوا بأنهم كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه، فإن هذه الأمة ـ وهي تنفق من الجهد والوقت والمال الكثير في مواجهة فتن اليهود وأعوانهم ـ جديرة أن تحدد مسيرة تجديد بنائها الذاتي في مواجهة التحدي على هدي مفهومات الإسلام ـ كما هي في معالم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ثم ما فهمه أئمة الهدى منهما ـ وعندها لا ينحسر مفهوم المعروف حتى يلتصق بزاوية لا تُرى في المجتمع، كما لا ينحسر مفهوم المنكر حتى يصبح كأنه من القضايا المنسيَّة، أو التي تتعلق بجانب واحد من جوانب الدين ـ كما يفهم أصحاب الأهواء ـ لا تتعداه.

إن صورة مشرقة من صور الشجاعة الأدبية تنقص الكثير منا في مختلف الميادين ـ حيث يحملنا حب العافية ـ غالباً ـ على أن نتهاون ـ ونحن نُعدُّ لبنات البناء أو دعائم صيانته ـ بما هو عنوان أصالتنا، والسمةُ المميزةُ لوجودنا عبر التاريخ.

وما أحسبني بحاجة إلى مزيد من البيان: فالوقائع ناطقة والأحداث شهود.

وفي خاتمة المطاف: لئن كانت الحراسة القوية للمجتمع المسلم تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأبعاد التي أشرنا إليها: إن الحراسة القوية المتميزة من الخارج: كائنة بالجهاد في سبيل الله. وكل ذلك مرتبط بالقاعدة الأولى للبناء وهي الإيمان وتقوى الله في العمل بمقتضاه، وحين يصوغ المؤمنون مقتضيات الإيمان ومستلزماته عملاً ينتج، وحركة تدفع بالأمة إلى ما هو الأفضل مع الحراستين الداخلية والخارجية، تطمئن النفس إلى البناء وضمان استمراره وتعاظمه كما يشاء الله، والنماء في فاعلية أبنائه.

هل لي بعد هذا أن أقول: إن فريضة الصيام من عيون الركائز في بناء الإنسان المسلم على القوتين الروحية والجسمية وتنمية الحس الجماعي عند المسلمين؟ وهل نعمل على أن لا تكون الأمة حبيسة المناسبة كل عام وكفى؟!.

صورة أخرى من العهد المكي.. الترغيب الأخروي

من إعجاز القرآن الكريم: أنه لا يدع باباً من أبواب الخير يوصل إلى المبتغى في شأن قضية من قضايا العقيدة، أو الشريعة، أو الأخلاق والسلوك ـ أمراً أو نهياً، ترغيباً أو ترهيباً، من طريق العبرة في القصة أو المثَل أو غير ذلك ـ إلا ولجه، وكل ذلك بأسلوب فذٍّ يتناسب كل التناسب مع الغَرَضِ الذي من أجله كان الكلام، ويتسق كل الاتساق شكلاً ومضموناً، وفي الأحوال كلها، مع الهدف الكبير وهو الهداية بمعناها الاصطلاحي الأعم، فالقرآن الكريم كتاب هداية يهدي للتي هي أقوم.

أقول هذا بعد أن عرضنا ـ في مناسبة سبقت ـ لمجموعة من الآيات المباركات التي تنزلت في العهد المكي في مواجهة ما كان يعانيه المجتمع من مظالم تسيء إلى بنيته، وتعوق قدرة الفرد والجماعة فيه عما يفترض من العطاء ومنها ما جاء في سورة الماعون.

كان ذلك بجانب المعركة الكبرى معركة التوحيد في مواجهة الوثنية والطواغيت، والأعراف الجاهلية الناجمة عنها. وقد رأينا هنالك ألواناً من وجوه الهداية في أسلوب القرآن الكريم: دلت ـ مع الإعجاز ـ على أن المجتمع الذي يقوده الإسلام قادم ـ بعون الله ـ وتأهيل بُناته حاصل على سلم الهداية.

بقي أن نذكر أن القرآن سلك ـ فيما سلكه ـ لتجفيف تلك المستنقعات الآسنة التي كان من مظاهرها: قهرُ اليتيم وعدمُ الإحسان إليه، وانصرافُ المجتمع عن أن يحث بعض أفراده بعضاً على طعام المسكين، لأنهم لا يفعلون ذلك فضلاً عن أن يطعموه، والتقصير في صلة ذوي القربى وأداء ما لَهم من حقوق... إلخ، سلك لذلك

سبيل الترغيب بعمل الخير: إحساناً إلى اليتيم، وحضَّاً على طعام المسكين، ليكون لأولئك العاملين على هذه الشاكلة ـ بإيمان ـ ما لأولئك الأبرار عند الله من النعيم المقيم في الجنة التي لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ففي سورة الدهر: ذكرت الآيات ما للأبرار من نعيم الجنة، ثم أتت على زمرة خيِّرة من الأعمال الصالحة التي قدَّموها بين يديهم زاداً للآخرة، فكانت نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم؛ ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴿٥﴾ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴿٨﴾﴾.

ثم تذكر الآيات أن هذا الذي صنعوا كان لوجه الله، لا لغرض يبتغونه من أغراض الدنيا... إنهم يخافون الله واليوم الآخر ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴿١٠﴾﴾ وكان الإكرام الإلهي بوقايتهم شر ذلك اليوم، وإدخالهم الجنة ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١].

وإذا علمنا أن سورة الدهر سورة مكية أيضاً، أدركنا غرضاً من أغراض القرآن بهذه العناية المبكرة في عمر الدعوة بشؤون المجتمع، والكشف عن الشوائب، وإعطاء المؤشرات لقضية البناء الكبرى، وتحويل الإمكانات المبعثرة هنا وهناك، إلى طاقات فاعلة مؤثرة، وعدم حرمان المجتمع من أية قوة مهما كان شأنها.

وفي رحلتنا عبر السورة التي ذكر فيها الماعون وما ولي ذلك من مراحل مقررة ومؤكدة ـ كان منها الترغيب الأخروي في سورة الدهر ـ: ما يؤكد ضرورة تعميق المشاعر الإيمانية عند الفرد، وتنمية الحوافز الذاتية عنده، بحيث يجمع إلى بذل الجهد والمنهجية في العمل: تطلعاً صادقاً إلى ما عند الله الكريم المنان، وما وعد عباده المتقين في الآخرة. ولا يخفى أنه إذا حصل ذلك: هانت الصعاب وانحلت العقدة الكبرى.

وإشارة لا بد منها.. إلى العهد المدني

لقد كنت عازماً على أن أتوقف عند الذي رأينا من تباشير الوجهة الإسلامية في بناء المجتمع من خلال عدد من معالم الكتاب العزيز في العهد المكي وفي العهد المدني، وأترك الكلام على الخطوط العامة في العهد المدني بعد أن أصبح للدعوة سلطان تسوس به المجتمع بأحكام الإسلام إلى فرصة أخرى، ولكن الرغبة في التكامل حملتني على أن أعاود الإشارة ـ ولو بإيجاز لأن الأمثلة تكاد تعز على الحصر ـ إلى هذا الذي حارب فيه الإسلام تلك المظالم الاجتماعية التي كانت جاثمة على صدر المجتمع في الجاهلية، وما أرسى من قواعد أحسنت إحكام العلاقة بين الحقيقة وبين رحلة البناء في حركة الفرد والجماعة، وبث الحياة في كثير من الطاقات التي عطلها الظلم الاجتماعي وفساد العلاقات بين الناس في تلك المجتمعات التي كانت ترزح تحت سلطان الجهالة والضياع.

وها نحن أولاء ننظر في هذا الجسر المبارك الممتد زمنياً بين السورة التي ذكر فيها الماعون وما جاء في سُوَرِ الإسراء، والروم، والقلم، والحاقة، والمدثر، والفجر بشأن الفقراء واليتامى والمساكين، وما يتصل من ذلك بسبب، وبين الآيات المدنية لنرى ما جاء حول ذلك الأمر الجلل في تلكم الآيات التي تنزلت في العهد المدني، وكيف أن ما جاء في العهد المكي ومع بداية التحرك الإسلامي: كان بداية الطريق، طريقِ الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي وغيرهما في ظل هداية الكتاب العزيز ومعالمه المضيئة المباركة.

ولعل من الخير أن أذكِّر بما قلته سابقاً من أننا عندما نتحدث عن معالجة القرآن للمظالم التي كانت تنزل بالفقير والمسكين واليتيم ومن على هذه الشاكلة، لا يعني ذلك حرص الإسلام على بقاء المسكين ـ مثلاً ـ على حالة لا يريم فيها عن الفقر والعوز!! لا ـ بل العكس هو الصحيح ـ ولكنه علاج الواقع بدافع من الحقيقة وامتثال المكلفين لأوامر الشريعة التي كرمّت الإنسان.

وإذا كانت شريعتنا توجب أداء الحقوق لأصحابها من ذوي الحاجات، لأن ما يعطَونه حقٌّ في المال وليس تفضلاً؛ فلأن يجري العمل على تضييق هذه الدائرة ورفع مستوى المعوزين بحيث تندفع حاجتهم، ويُسهمون في بناء المجتمع وهم كذلك: يكون أولى، وأحرى بمرضاة الله عز وجل، والتناسق مع أهداف الإسلام الإصلاحية في البناء.

أولم يحصل في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ يرحمه الله ـ وقد تولى الخلافة بعد ثغرات وهنات ـ أن نفراً من عماله شرعوا يشكون إليه أنهم لا يجدون فقيراً يعطونه الزكاة، لما أن الأمور سارت سيرها الطبيعي، وبلغ الاستمساك بأحكام الشريعة وآدابها في التعامل مع من هم بحاجة إلى المعاونة والإحسان: أن لا يظل في المجتمع من هم على هذه الحال من الفاقة والعوز، وتحوَّلوا بفعل التعاون المجدي ابتغاء مرضاة الله إلى طاقات فاعلة تأخذ مكانها في مجتمع العقيدة وأخوة الإسلام؟.

وأنه عندما خاف بعض عماله على نقص الموارد بسبب دخول كثير من غير المسلمين في الإسلام أجابه بحزم منور بنور الدعوة إلى الله: «إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً»؟!.

وفي عود على بدء: علماً بأن المقام ليس مقام تفصيل ـ فلذلك مواطنه ومظانه ـ ولكن بإشارة سريعة لا غنى عنها، ونظرة عجلى ـ يرجى أن تؤدي غرض التنبه إلى ما بين العهد المكي وبين العهد المدني من صلة امتداد وتكامل فيما نحن بسبيله من قضية البناء الكبرى ـ نرى في الآيات المدنية عدة شُعب كريمة تتعلق ببُنى المجتمع وإقامتها على صورة تضمن القوة والاستمرار، وفي هذه الشعب ما هو وثيق العلاقة بتلك الأصناف من أبناء المجتمع من حيث الرعاية الدائمة، والعمل على تأهيلهم للخروج إلى مستوى العطاء والقدرة على الإسهام في البناء المطلوب.

فمن شعبة ترتبط بتشريع الزكاة، وشعبة تكشف عن تشريع الغنائم والفيء، وما إلى ذلك، وأخرى ترتبط بتشريع الكفاءات وما إليها، ناهيك عن تلك التي عمادها القرض الحسن، وإنظار المعسر، والإنفاق في سبيل الله وإغاثة الملهوف، ومعاونة من تجب معاونتهم، على اختلاف العناوين والأوصاف. ولا تسل عن تلك الشعب التي تتعلق بصنوف من أعمال الخير التي منها صلة الرحم، وأداء الحقوق، وتلمس طرق الخير هنا وهناك؛ كل أولئك بباعث من الإيمان والتصديق بما وعد الله عباده المنفقين المحسنين.. وهكذا، ولست بسبيل الاستقصاء!!.

ففي سورة «التوبة» ـ مثلاً ـ تحدَّد مصارف الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام ومن هذه المصارف: الفقير والمسكين وابن السبيل؛ ذلكم قول الله جلت قدرته: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾.

وفي شأن الغنائم وأصحاب الحق فيها: نقرأ في سورة «الأنفال» قول الله جلت حكمته: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾. أرأيت إلى موقع اليتامى والمساكين على هذه الساحة؟.

وفي شأن الفيء وسعة ساحة العطاء حتى لمن يأتون من بعد: تطالعنا سورة الحشر بقول الله سبحانه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)﴾.

إنها الأحكام التي تخالط الحياة، فتعمل بمنهجية لا يعوزها التكامل على إنشاء واقع تحكمه ضوابط رسالة الإسلام وأخلاق الإسلام؛ فيكون المجتمع الأمثل الذي يجمع إلى إحكام البنية الحضارية: روح الطاعة الخالصة لله.

وليس من مكرور القول التنبيه على ما يجد الناظر في كل من أحكام الزكاة، وأحكام الغنائم والفيء: من أن ما يعطاه الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل ـ كما هو في الغنائم والفيء ـ حق لازم ينأى عن التفضل والاختيار ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

ولا يخفى ما لارتباط هذه الأحكام بكلام الله عز وجل: من أثر في طمأنينة الفرد وإحساسه بكرامته، وفي تنميته حوافز العمل الخيِّر في أعماق نفسه، كما لا يخفى انعكاس ذلك على بُنَى المجتمع الثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

ثم إنه ما بدٌّ من تذكر أنه مع تطور الحياة والأعراف: تنوعت الحاجات ومواقعها وأساليب سدِّها؛ والمهم أن تكون لدينا العزيمة الصادقة في أن تأخذ الحقيقة التي ندندن حولها، مكانها الطبيعي في بنية الحياة الاجتماعية محسنين تصور ما لذلك من أثر على البنية الاقتصادية وغيرها.

والشريعة بحمد الله يُسْرٌ وبعد عن الحرج؛ ففي شأن الزكاة مثلاً أي صنف من الأصناف المذكورة في الآية وجد: يُعطى، وإن لم يوجد: ففي غيره خير وبركة، وعلى سبيل الإيضاح: تنص الآية على واحد من مصارف الزكاة - وهو المؤلفة قلوبهم - أولئك الذين كان يتألفهم رسول الله ﷺ والدعوة لم يشتد ساعدها بعد: فالآية تنص على أن يعطى هؤلاء جزءاً من الزكاة وفي عهد عمر رضي الله عنه، توقف هذا المصرف من مصارف الزكاة: لأن عمر - ومعه أهل الحل والعقد - لم يجد ما يسمى «بالمؤلفة قلوبهم» ولا تلتفت إلى المستغلين والمتجاهلين الذين يزعمون أن الفاروق رضي الله عنه عطَّل النص وهو من ذلك براء، وما فعله كان الفقه كلَّه، والتدين الصادق كلَّه في هذه المسألة والحمد لله!.

البناء.. والتنبيه المبكر وسورة الماعون

« ١ »

بداية التحرك الإسلامي، تطل تباشيرها على أرض الجزيرة العربية ـ ومعركة العقيدة هي المعركة ـ والدعوة جادَّة في هدم الوثنية واستئصال آثارها المدمرة من النفوس، والتمكين لعقيدة التوحيد التي راحت تواجه ـ مع عبادة أوثان لا تضر ولا تنفع ـ خضوعاً لموروثات جاهلية تعمل عملها ـ على كل صعيد ـ في إفساد العقول والقلوب، وعكوفاً على شتى الصور من الكهانة والعرافة والخرافة، وتقليداً أعمى للآباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؛ الأمر الذي يعطل عمل العقل ويبعث على الكسل الفكري والاسترخاء النفسي، ويلقي على الفطرة ستاراً كثيفاً من المعوقات.

والوحي يتنزل على رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه، والآيات المكية لا تني تدعو المشركين إلى إعمال عقولهم ونبذ التقليد الأعمى، واطِّراح الأعراف التي تحلل وتحرم وفق الأهواء الجاهلية، والتفكر في آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، والنظر إلى حكمة الخلق في الكائنات من حولهم، وتوجيه أنظارهم إلى ما حصل للأمم السابقة مع رسلهم؛ حيث فاز المصدقون المستجيبون للدعوة الهادية برضوان الله، وأصابت الآخرين القوارع، ونزلت بهم صنوف العذاب والتنكيل جزاءً بما كانوا يصنعون، والوعيد بما سيكون مصير الكافرين يوم القيامة، وإقامة الأدلة على أن هذا اليوم واقع لا محالة، والرد على تخرصات المتعنتين حول إمكان وقوعه.

ومن المهم حقاً: أنه مع بداية هذا التحرك ـ والحال كما وصفنا بعضاً من مظاهرها وصورها ـ وجدنا نثارات من الضياء تهدي فيما تهدي إليه: أن الاهتمام بأمر العقيدة الربانية وإزالة الركام الوثني من نفوس الأفراد وبنية المجتمع: إنما كان

بداية الطريق لبناء مجتمع فاضل أمثل على أساس من هذه العقيدة، يتسم بالتراحم والتعاون على الخير بعيداً عن أوضار الجاهلية، ويُعنى شديد العناية بتنمية طاقات أبنائه في ضوء مقاييس الهداية والبر التي تطرحها الكلمة الطيبة، «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ألم تر إلى ما تشرق به سورة «الماعون» التي تنزلت ــ على قول الأكثر ــ في هذا العهد المبكر من عمر الدعوة: من تنديد بمن يكذب بالمعاد والجزاء والحساب، ويتخذ موقفاً نابياً من التعاون على البر والإحسان إلى الضعفاء؛ فهو يدعُّ اليتيم: يدفعه بعنف عن حقه بدل أن يواسيه ويحسن إليه ولا يقتصر على عدم إطعام المسكين، بل لا يحضُّ على ذلك إن لم يتوافر له القدرة على الإطعام.

ثم انتقلت السورة ــ على وجازة كلماتها ــ وهذا من الإعجاز ــ إلى التنديد والوعيد بالويل لأولئك المصلين الساهين عن صلاتهم الذين يراؤون، ويَغُلُّونَ أيديهم عن فعل الخير وتقديم المعونة لإخوانهم في المجتمع.

ذلكم قول الله جل وعز: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

وحصول هذا الذي نومىء إليه من الاهتمام بحسن التعامل بين أبناء المجتمع، ووجوب أن لا يكون اليتم أو المسكنة سبباً في عزلة نفسية قاهرة، وحرمانٍ لهذا المجتمع من عطاء هذا اليتيم أو ذلك المسكين.. إن حصول هذا الاهتمام ــ مقترناً بقضية كبرى من قضايا العقيدة وهي الإيمان بالجزاء والحساب، وفي عهد مبكر من عمر الدعوة، والفتنةُ عن الدين تطارد كل من آمن بالدين الجديد، وكلمة الحق مضطهدة محاصرة.. ــ ذو دلالة بعيدة المدى، ومغزىً عميق يشعر بهذه الوحدة بين العقيدة والسلوك وبين إحكام بنية المجتمع على قوة الحق والعطاء في منهج الإسلام.

فمن أول يوم تمهّد الأسس ـ وحياً من عند الله ـ لا لبناء الفرد فحسب، ولكن لبناء الجماعة والمجتمع وإن كان الوقت لم يحن لبروز هذا المجتمع إلى حيز الوجود. ومع البناء إشعار الفئة القليلة المؤمنة: أنها بإيمانها وصبرها على تمثل الدعوة التي تدمى الأقدام على طريقها، إنما تتجه نحو إنشاء ذلك المجتمع الأمثل القدوة، طال الزمن في تحقيق ذلك أو قصر. وكل حركة في هذه الحقبة المبكرة اليوم سيكون لها الصدى المؤثر في قادمات الأيام إن شاء الله. وهذا ما حصل ولله الحمد والمنة.

وهكذا لم يكن بعيداً عن التصور في عقل المسلم وقلبه: أن الحال التي كانت عليها الفئة القليلة المؤمنة، هي مرحلة على طريق طويل بدءاً بالإيمان والصبر على مقتضياته، وسوف ينتهي ببناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة في الدنيا، وبالظفر بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين في الآخرة.

من أجل هذا كان مطلوباً في ظل الدعوة الخيرة التي يصبرون ويصابرون تحت رايتها أن تحافظ الجماعة على الطاقات الفاعلة كلها، كيما تكون في خدمة الفرد والمجموع على حد سواء، وهذا لا ينافي أن الإنسان هو المحور دائماً في موضوع كهذا.

وكون القاعدة التي يراد أن يبنى عليها المجتمع: هي الإيمان بنوره الوضّاء وفعاليته البانية المؤثرة: أمر واضح ينفي أي واحد من تلك التفسيرات المادية التي تحاول أن تخضع ما حصل قبل قرون وقرون، لضوابط لا تمت إلى الإيمان القلبي والروحانية بصلة. وفي ذلك ما فيه من الطاعة للهوى والجهل بطبائع الأشياء.

ثم إن جعل المادة هي المحور في مثل هذا الموضوع العميق الجذور المتشعب الأطراف، وما كان له من أثر في التبدل الحضاري: يدل على انتماء التفسير المادي للتاريخ والوقائع: إلى اليهودية والفكر اليهودي.

ولنا عودة إلى المعلم القرآني الذي نسعد بالرحلة معه، وما يحمل من الدعوة المبكرة إلى بناء المجتمع بناءً متكاملاً، وتنمية طاقاته البشرية والمادية في ظل عقيدة التوحيد.

البناء.. والتنبيه المبكر وسورتا الماعون والفجر

«٢»

نعود ـ والعود أحمد ـ إلى السورة التي يذكر فيها الماعون، والتي رأينا ـ ونحن نجمل القول في معناها العام ـ أنها ـ على وجازة كلماتها ـ تؤذن بالبداية المبكرة لعملية البناء الكبرى؛ فقد طلعت علينا ـ وهي سورة مكية عند الأكثر ـ بالمعلم القرآني الذي يوحي بأن التمهيد لبناء مجتمع أمثل يتكافل أبناؤه ويتضامنون على أساس من عقيدة التوحيد: ظهرت تباشيره منذ العهد المكي أي في حقبة مبكرة من عمر الدعوة، وقبل أن يكون للفئة القليلة المؤمنة سلطان يخضع معه المجتمع لعقيدتها وتسوسه بشريعة تنتمي انتماءً جذرياً إلى تلك العقيدة، وأنى لها ذلك في تلك الحقبة والأذى يطارد أفرادها من هنا وهناك، ومحاولة الفَتْنِ عن الدين بوسائل لا تمت إلى المعنى الإنساني بصلة قائم صباح مساء! وهذا نص السورة المباركة مرة أخرى.

يقول الله جلَّ وعز: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

إن هذه السورة بآياتها القصار الست: تجعل الذي يكذب بالدين وهو يوم الميعاد والجزاء والحساب: هو الذي يقهر اليتيم، ولا يطعمه، ولا يحسن إليه؛ وليس هذا فحسب: بل يظلمه حقه ويؤذيه. والمراد باليتيم: الصبي الذي مات أبوه، وتعريفه هنا للجنس أي يدعُّ اليتامى، وكذلك تعريف المسكين كما سيأتي.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد من استبدال الأذى والظلم بالعطف والإحسان: بل إن هذا المكذب بيوم الحساب والجزاء: يبلغ من نكده وسوء تعامله أن لا يقتصر على عدم إطعام المسكين، بل لا يحضُّ على ذلك أيضاً، علماً بأن هذا المسكين تبلغ به الحاجة أن يكون من الفقر بحيث لا شيء له يقوم بأوده وكفايته. على أن نفي الحض على إطعام المسكين: نفيٌ لإطعامه بطريق الأولى.

والذي نراه في هذه السورة المباركة من التنديد بهاتين الخصلتين عند بعض الجاهليين يذكرنا بالنظير في قوله تعالى في سورة «الفجر» ــ وهي سورة مكية أيضاً ــ: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾.

ففي هاتين الآيتين: خطاب واضح للمشركين بأنهم لا يكرمون اليتيم ولا يأمر بعضهم بعضاً ــ عن طريق الحض ــ بالإحسان إلى الفقراء والمساكين.

وما قلناه من قبل عن إرادة الجمع باليتيم والمسكين: يقال هنا؛ لأن المراد جنس اليتيم، وجنس المسكين؛ فليس المقصود يتيماً بعينه، ولا مسكيناً كذلك، ولكن المراد تبيان هذه الحقيقة وهي أن عند هؤلاء المقصودين: هذه الخليقةُ السيئةُ الهابطة في التعامل مع اليتامى والمساكين.

ومن بديع النظم في الكتاب العزيز الذي تؤدي بلاغته المعجزة وظيفة إثارةِ الاهتمام بما سيُلقى، وإشعارِ القارىء والسامع بالأهمية البالغة للموضوع الذي تتناوله الكلمات، وشدِّه إلى التعجب من صنيع من يقع في المساءة ويجترح ما يتنافى مع العقل السليم والحق.. أقول: من بديع النظم في هذا القرآن: أن السورة بدئت بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ خطاباً للنبي ﷺ بهذا الاستفهام المثير المشوِّق.

فأنت واجد أن الاستفهام ــ كما يقول العلماء ــ في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ مستعمل في التعجيب من حال المكذبين بالمعاد والجزاء، وما أورثهم هذا التكذيب من سوء الصنيع في تعاملهم مع اليتامى والمساكين؛ فالتعجيب واقع من تكذيبهم بالدين وما تفرَّع عليه من قهر اليتيم وظلمه حقَّه، وعدم إطعامه والإحسان إليه، وعدم الحض على طعام الفقير الذي لا شيء يقوم بأوده وكفايته.

وقد صيغ هذا التعجب من حال هؤلاء المسيئين ـ اعتقاداً وسلوكاً ـ مع الآخرين: في نظم مشوِّق؛ لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول وهي ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾. يذهب بذهن السامع مذاهب شتى في تعرُّف المقصد بهذا الاستفهام الذي صُدِّر به الكلام.

وإنما كان ذلك: لأن التكذيب بالمعاد والجزاء شائع فيهم ـ وما أكثر ما حجَّهم القرآن الكريم ببراهين وقوعه ـ فلا يكون هذا التكذيب مثاراً للتعجب، وبذا يترقب السامع ماذا يَرد بعده، وهو قوله: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

ولا يخفى أن في الكلمة القرآنية الهادية في هذه السورة المباركة: تنبيهاً على فساد ما عليه أولئك المكذبون بالمعاد، وأن هذا التكذيب حملهم على ما يقترفون من سوء الصنيع مع من تجب معاونتهم والإحسان إليهم، لأنهم من أولى الناس بذلك.

إنه السلوك المشين، وفقدان الحس الجماعي بعمل الخير، مع أن حال كل من اليتيم والمسكين يستدعي غير الذي كان يصنع هؤلاء المكذبون بيوم الدين.

هكذا تكشف سورة الماعون عن بعض مظاهر الفساد والظلم في المجتمع الجاهلي، بهذا الأسلوب الرائع المثير للسليم من العقول.

وقد سبقت الإشارة إلى ما يؤكد وجود تلك المظاهر من سورة «الفجر»، غير أن الكلام في هذه السورة سورة الماعون جرى مجرى الحديث ـ كما أسلفنا ـ عن جنس الذين يكذبون بالدين، ويسيئون لليتامى والمساكين في الطابع العام، فجاء اللفظ مفرداً ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ ...﴾.

وفي سورة الفجر خوطب القوم جماعة وبأسلوب رادع زاجر﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ ولكن في السورتين: اللفظ مفرد والمراد الجنس.

ومهما يكن من أمر: فالاقتران واضح بين التكذيب بيوم الدين، وبين تلك الأخلاق الذميمة التي هي عنوان التخلخل في المجتمع، وعدم قابليته للنماء؛ وإذاً فقد جعل الكفر من المتسربلين بظلماته مخلوقاتٍ تجف بداخلها ـ في الأعم الأغلب ـ نوازع الخير، وتنمو على حسابها نوازع الظلم والشر وهذا لا ينافي وجود جزيرة مضيئة أحياناً في بحر الظلمات.

وحين يسلك المجتمع هذه الطريق، ولا تتمعَّر وجوه أبنائه لعوامل التفكك وخلائق الأذى، يخسر مرتين: أولاهما: ما خسره من وقع عليهم الظلم وجوبهوا بالإساءة، وهو أنفسُهم عندما حرموا من المعاونة الكريمة والأخذ بأيديهم إلى ما هو الأكرم من رفعهم إلى المستوى الذي يجعلهم أقدر على العطاء. الثاني: خسارة ما يمكن أن يقدمه هؤلاء على صعيد البناء والإنماء عندما يعيشون أسوياء لا تثبط هممهم العقد النفسية والتشاؤم.

إنها الجاهلية التي تعوق مسيرة الخير، وتعطل إمكانات النمو الإنساني والمادي في المجتمع وذلك ما أنكره الإسلام من أول يوم.

وليس من مكرور القول أن نعود إلى تأكيد أن هذا كله يدل أوضح الدلالة على وجهة الإسلام الإنسانية المثمرة في بناء المجتمع، كيما يقوم هذا المجتمع على أسس سليمة تضمن ـ مع الإيمان ـ التعاون والتكافل بين من يضمهم هذا المجتمع، بحيث يأخذ القوي بيد الضعيف، والغني بيد الفقير، والعالم بيد الجاهل.. إلى آخر السلسلة.

وهكذا نرى أن مجتمعاً كهذا لا يهان فيه يتيم ولا مسكين، ولا تفقد فيه الجماعة بواعث التعاون على كل ما يعود على الفرد والجماعة بالعزة والمنعة والنماء، وأن يحض الناس بعضهم بعضاً على فعل الخير، فيحصل القيام بالإحسان إلى الفقير، والأخذ بيد الضعيف حتى ينال كلٌّ ما يقوم بأوده وكفايته، بل يتحول ذلك ـ بمنهجية ـ إلى تغيير حال أولئك الفقراء والضعفاء والمحرومين، ويضمون إلى التحسُّن في أحوالهم، أن يصبحوا لبنات قوية في جسم المجتمع لا تني تعطي وتقدم ـ بعون الله ـ المزيد.

وجميل ما فهمه بعض العلماء من أن في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ أمراً بالإحسان إلى اليتيم. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

البناء.. والتنبيه المبكر سورتا الماعون.. والفجر

«٣»

إن الذي أخذته الآيات الكريمات في السورة التي يُذكر فيها الماعون، على المشركين من التظالم الاجتماعي الذي يضاعف خسارة المجتمع على صعيد البناء والنماء، كان مقترناً ـ كما رأينا فيما سبق من القول ـ بالتكذيب بيوم المعاد والجزاء والثواب يوم الدين.

والمفهوم الواضح النيِّر لذلك، أن الإسلام: من صُلب دعوته القائمة على التوحيد: الإيمانُ بيوم الدين؛ فله وجهة أخرى في بناء الفرد والمجتمع، يبني الفرد على العقيدة التي تتواءم مع فطرته، ويفسح له مجال القدرة على العطاء، وفي الوقت نفسه يبني المجتمع على أسس سليمة تضمن التعاون والتكافل، ومُجتمعٌ كهذا، لا يُهان فيه يتيم، ولا تفقد فيه الجماعة سمة التعاون على الخير، وأن يحث الناس بعضهم بعضاً على فعله، صورةٌ عن نمو الحسّ الجماعي، وأن الفرد في خدمة المجتمع، وأن المجتمع في خدمة الفرد، والكل تسيِّرهم من الأعماق مُثلٌ كريمة، تحملهم إلى استمرار البناء وتعاظمه، ونمو إمكانات الفرد والجماعة في الدنيا، والفوز بمرضاة الله في الآخرة، في ذلك اليوم الذي آمنوا به من أول الطريق.

ومن ثمرات ذلك: أن يحصل عكس ما هو واقع في المجتمع الجاهلي؛ فلا يقهر يتيم ولا يظلم فقير، ومن لا يستطيع معاونة المعوز الفقير: يحض غيره على ذلك، وعندها لن تجد ذلك الفقير الذي لا يتسنى له ما يقوم بأوده وكفايته، وترى طاقات المجتمع وقد برزت إلى الوجود، وأعطت عطاءها على كل صعيد.

ومن الخير أن نذكر ـ ونحن نقول ذلك ـ ما سبقت الإشارة إليه من أن علماءنا فهموا من قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ أمراً بالإكرام له، كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام البخاري من رواية سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وقال بإصبعيه السَّبابة والوسطى [الفتح: ٤٣٦/١٠]. قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك.

والحديث رواه أبو داود بلفظ: «**وقرب بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام**» [٣٥٦/٥]. كما رواه الترمذي بلفظ «**أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين**» وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى وقال: قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح [٣٢١/٤].

وأنت واجد أن منهج الإسلام في مواجهة المجتمع الجاهلي ـ بما كان يحمل من التناقض والمظالم ـ: يضمن ربح المجتمع مرتين: المرة الأولى حين لا يُشعر من قعدت بهم أسباب الحياة لأمر معين من ويتم، أو فقر أُصيبوا به أو معوّق نالهم: أنهم دون المستوى في الجماعة؛ وهذه صورة من سلامة البناء والقدرة على النمو في المجتمع. المرة الثانية حين يتحقق تكافؤ الفرص لهذا اليتيم وذاك المسكين ومن كان على شاكلتهما، فيتاح لهم أن يثبتوا وجودهم فيكونوا قادرين على العطاء، وكم في ذلك من إسهام في نمو المجتمع على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، ناهيك عن الاستقرار النفسي الذي له ما له ـ بعد الإيمان ـ من أثر في وضع المواهب والإمكانات موضعها.

ولا نعني هنا ـ في هذه العجالة ـ ونحن نتحدث عن سورة الماعون ـ أن يكون من قعدت به أسباب الحياة في موضع تلقي العون دون أن يعمل، بل إن المجتمع المسلم مطالب أن يقدم المستطاع ـ تهيجاً وعملاً ـ ليكون لكل فرد من أفراده

فاعلية في ظل حياة كريمة تستعلي فيها إنسانيته لأن الله أعطاه ذلك. وقد رأينا في كلمات سلفت، من خلال الإطلالة الإنسانية في سورة الضحى: تذكير النبي ﷺ بما أنعم الله عليه عند اليتم والحاجة والتطلع إلى الحقيقة، وكيف جاءت التوجيهات من بعدُ درساً للمسلمين في التسامي الذي يحقق الحياة الأكرم والأفضل في مجتمع العقيدة ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ الذي يسأل عن أمور دينه ودنياه ﴿فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

وفي خاتمة المطاف: كان لا بد من الإشارة ـ ونحن نسعد بالرحلة مع سورة الماعون: إلى سورة الفجر وسورة الضحى وهي لمحات تدل على ما وراءها إن شاء الله.

البناء.. والتنبيه المبكر وسورة الماعون

« ٤ »

هذه السورة الكريمة التي تنزلت في العهد المكي بآياتها القصار الست التي لم تتجاوز ستة وعشرين كلمة منها الواو في ﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ قد أعطتنا بشكل مبكر صورة تقرِّب ما يراد للمجتمع المسلم أن يكون عليه من سمات التكامل، بعد تنزيهه عن شوائب الجاهلية وأخلاق المكذبين بالدين.

ولقد رأينا في آياتها الأولى إنكاراً لما كانت عليه الجاهلية من تظالم في المجتمع يتمثل في قهر اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين، وارتباط ذلك بالتكذيب بيوم المعاد يوم الدين، وأن الذي يكذِّب بيوم الدين هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه، ولا تتحرك في نفسه نوازع الخير فيحث على طعام الفقير الذي حرم حتى مما يقيم أوده وكفايته.

وكان ذلك مؤشراً هدانا إلى وجهة الإسلام فيما يجب أن يكون عليه المجتمع ضماناً لقابلية النماء واستمرار البناء سليماً معافى.

ونحن واجدون بعد ذلك: تهديداً ووعيداً بالويل للمصلين الذين يقعون في السهو عن القيام بعبادة الصلاة بالكلية، أو عن فعلها على ما ينبغي في الوقت المقدر لها شرعاً، أو عن وقتها الأول، فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو في الأعم الأغلب، أو يتهاونون في أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، أو عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها. تلك أقوال للعلماء واللفظ يشمل ذلك كله، ولكن من اتصف بشيء من ذلك فله قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم له نصيبه منها ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ وكمل له النفاق العملي، يشهد

لذلك ما ثبت في الصحيحين ــ والكلام على صلاة العصر ــ من رواية أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً**».

وهؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون يفعلون ما يفعلون مراءاة للناس لا ابتغاءً لوجه الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وأي خير يؤمل في هؤلاء لأنفسهم أو للمجتمع؟ إنهم عناصر هدم لا عناصر بناء، وهم دائماً معوّقون لمسيرة الفلاح التي تنشدها الأمة. وهم يضمون إلى ذلك كله: أنهم يمنعون الماعون؛ فهم على حال لا أحسنوا فيها عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، فتعاونوا مع الآخرين تعاوناً يعود عليهم وعلى المجتمع بالخير، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم بعد أن ينتفع به الآخرون.

وإذا كان الأمر كذلك في الإعارة، فهم لمنع الزكاة وأي نوع من أنواع البذل والقربات في المال أو النفس أولى ــ والعياذ بالله ــ.

ومهما تعددت أقوال العلماء بالمقصود من الماعون: فهذا الخُلق في هؤلاء المعوَّقة قلوبهم صورةٌ عن جفوة الخير، وفقدانِ المسؤولية الجماعية، والحسّ المشترك بين أبناء المجتمع الواحد. وهذا مرفوض في مجتمع العقيدة في الإسلام ــ كما يؤمل أن يكون ــ

وهكذا تتكامل الصورة: المكذب بيوم الدين، يقهر اليتيم ولا يحض على طعام المسكين. الساهون عن صلاتهم يراؤون ويبخلون بتقديم أبسط لون من ألوان التعاون مع الآخرين، وكل ذلك من دواعي الفساد والإفساد وتعويق البناء والسخاء.

وعندما يذكُر القرآن ذلك بمعرض الذم والنقمة ــ وفي العهد المكي ــ حيث الشدة الشادة على الفئة القليلة المؤمنة، وحيث تقضي الضرورة بناء وتثبيت عقيدة التوحيد.. يكون هذا دليلاً على سمة البناء المجدي والحرص على التنمية عند الفرد

والجماعة في الإسلام؛ إذ لم تصرف شؤون العقيدة عن مؤشرات لسمات المجتمع الذي يجب أن يكون نتاج هذه العقيدة. ولا بدع في ذلك، ودعوة الإسلام هي دعوة الحياة للفرد والمجتمع والأمة.

وجميل ما كان من صاحب «الكشاف» من تجليته لعطاء هذه الآيات الكريمات تجليةً تزيد من القدرة على تبين مراميها وأبعادها على الوجه النافع الذي نحن بصدد الوصول إليه. ذلكم قوله: (هل عرفتَ الذي يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه «فذلك الذي» يكذب بالجزاء هو الذي «يدعُّ اليتيم» أي يدفعه دفعاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة وقرىء «يَدَع» أي يترك ويجفو. «ولا يحض» ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين).

ثم قال رحمه الله: (جعل عَلَم التكذيب بالجزاء: منعَ المعروف والإقدامَ على إيذاء الضعيف، يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي الله تعالى وعقابه، ولم يقدم على ذلك!! فحين أقدم عليه: عُلم أنه مكذب.

فما أشدَّه من كلام، وما أخوفه من مقام، وما أبلغه في التحذير من المعصية، وأنها جديرة بأن يستدلَّ بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين.

ثم وصل به قوله: «فويل للمصلين» كأنه قال: فإذا كان الأمر كذلك: فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قِلةَ مبالاة بها حتى تفوتَهم، أو يخرج وقتها ولا يصلُّونها، كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف، ولكن ينقرونها نقراً من غير خشوع وإخبات، ولا اجتناب فيها لما يكره من العبث باللحية والثياب، وكثرة التثاؤب، والالتفات؛ لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف، ولا ما قرأ من السور؛ كما ترى عادة من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم، ومنع حقوق أموالهم.

والمعنى: إن هؤلاء أحق بأن يكون سهوُهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك، ومنعُ الزكاة التي هي شقيقة الصلاة، وقنطرة الإسلام: علَماً على أنهم مكذبون بالدين، وكم ترى من المتسمين بالإسلام، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة فيا مصيبتاه) الكشاف: [٤/٢٣٦].